أدبيات

بين الخوارزمى والهمذانى (*)

للأستاذ على الجندى

— ٢ —

حين اطمأنّ المجلس بالشهود فى دار النقيب ، تطاولت الأعناق ، وشخصت الأبصار ، وانتصبت الآذان ! فافتتح البديع المساجلة بكلام يجمع بين التهكم والتوريط ! : إنما دعوناك لتملأ المجلس فوائد ، وتذكر الأبيات الشوارد ، والأمثال الفوارد ، وتناجيك فنستمد بما عندك ، وتسألنا فنُسرّ بما عندنا . ونبدأ بالفن الذى ملكت زمامه ، وطار به صيتك : وهو الحفظ إن شئت ، والنظم إن أردت ، والنثر إن اخترت ، والبديهة إن نشطت ، فهذه دعواك التى تملأ منها فاك !

وقد حسب الخوارزمى حساباً لشيخوخته ، فخاف أن تكبو به قريحته فى الحفظ والنثر ، فآثر المبادهة بالشعر

فقال البديع : الأمر أمرك يا أستاذ

فأجابه الخوارزمى : أقول لك ما قال موسى للسَّحَرة : « بل ألقوا »

فأخذ كل منهما دواة وقلماً ، وخط البديع أبياتاً مدح فيها السيد نقيب الأشراف ، وفخر بنفسه ما شاء ، وأوسع الخوارزمى ذمًّا وسخرياً ! منها :

والشعر أصعب مذهباً ومصاعداً ... من أن يكون مطيعُه فى فَكِّه

والنظم بحر ، والخواطر مَعبَرٌ ... فانظر إلى بحر القريض وفُلْكه

فمتى تراني فى القريض مقصّراً ... عرّضت أذْن الإمتحان(١) لعَرْكه

أصغوا إلى الشعر الذى نظمته ... كالدُّرّ رُصّع فى مَجرّة سِلْكه

فمتى عجزت عن القريض بداهة ... فدمى الحلال له إباحة سفكه

ونظم الخوارزمى أبياتاً امتنع عن إبرازها فيما يقول الرواة ، فقال البديع له : إن البيت لقائله كالولد لناجله ، فما لك تعقّ ابنك وتضيمه ؟ أبرزها للعيون ، وخلصها من الظنون ، أما تستحى أن يكون السِّنَّور أعقل منك ؟ لأنه يجمُر(١) فيغطيه بالتراب؟ !

فقال النقيب : انسجا على منوال المتنبي :

أرَقٌ على أرق ، ومثلى يأرق

فابتدر الخوارزمى قائلاً :

وإذا ابتدهت بديهة يا سيدى ... فأراك عند بديهتى تتقلّق

وإذا قرأت الشعر فى ميدانه ... لا شك أنك يا أخى تشقّق

إنى إذا قلت البديهة ، قلتها ... عجلاً ، وطبعك عند طبعى يرقق

مالى أراك ولست مثلى فى الورى ... مُتعوِّهاً بالترهات تمَخرق(٢)

إنى أجيز على البديهة مثلما ... تريانه ، وإذا نطقت أصدّق

لو كنتَ من صخر أصمّ لهاله ... منى البديهةُ ، واغتدى يتفلق

أو كنت ليثا فى البديهة خادرا ... لرُئيت يا مسكين منّى تفرَق

وبديهة قد قلتها متنفّسا ... فعل الذى قد قلت ياذا الأخرق

ثم قال معتذراً عن هلهلة نسجها: هذا كما يجيء لا كما يجب. فقال البديع : قبِل الله عذرك ! لكنى أراك وَقَّفت بين قوافٍ مكروهة وقافات خشنة ، كل قاف كجبل قاف : تتقلق ، تتشقق ، تتفلق الخ

فخذ الآن جزاء عن قرضك ، وأداء لفرضك :

مهلاً أبا بكر فزندك أضيق ... واخرَس ، فإن أخاك حيّ يُرزق

يا أحمقاً وكفاك تلك فضيحةً ... جرّبت نارمعرّتى ، هل تحرق ؟

فقال الخوارزمى : يا (أحمقاً) : لا يجوز ، فإنه لا ينصرف .

فقال البديع : لا تزال نصفعك حتى ينصرف وتنصرف معه !

وللشاعر أن يرد ما لا ينصرف إلى الصرف ، وإن شئت قلت : يا كَوْدَنا(٣)

ثم أردف البديع قائلاً : أخبرني عن قولك فى البيت : ياسيدى ، ثم قولك : تتقلق ، أمدحت أم قدحت ؟ فإن اللفظين لا يركضان فى حَلْبة(٤) ، ولا يخطان فى خطة

فابتدر النقيب قائلاً : قولا على منوال قول المتنبي :

أهلاً بدار ســـباك أغيدُها

فارتجل البديع :

يا نعمةً لا تزال تجحَدُها ... ومنة لا تزال تكْنُدُها

فاعترض الخوارزمى قائلاً : الكُنُود : قلة الخير لا الكفران .

فأنكر الجميع ذلك وقالوا : أما قرأت قوله تعالى : « إن الإنسان لربه لكَنود » أى لكفور

(*) انظر العدد ٣٣٧ (١) قطعت الهمزة لضرورة الوزن

(١) يحدث وهى رواية رسائل البديع (٢) المخرقة : الحمق

(٣) الفرس الهجين والفيل والبغل (٤) المراد هنا : ميدان السباق

فحمى الخوارزمى وقال : أنا اكتسبت بفضلى دية أهل هذان فما الذى اكتسبت أنت بفضلك ؟ فقال البديع : أنت فى حرفة الكدية[1] أحذق ، وبالاستماحة أحرى وأخلق ، وأما مالك فعندى يهودى يعاملك فى مذهبه ويزيدك بذهبه . ثم مال على مغن فقال : أسمعنا خيراً ، فغنى :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم فى الخد الرقيق

فقال الخوارزمى : أنا أحفظ هذه القصيدة ، وهو لا يعرفها .

فقال البديع : أخطأت ، فإن البيت على غير هذه الصيغة وهى :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم فى الوجه الصفيق

فقال الخوارزمى : والله لأصفعنك ولو بعد حين !

فرد البديع . أما أصفعك اليوم وتضربنى غداً ، اليوم خمر ، وغداً أمر ! ثم تمثل بقول ابن الرومى :

رأيت شيخاً سفيها يفوق كل سفيه
وقد أصاب شبيها له وفوق الشبيه

وقفى على ذلك منشداً :

وأزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله
أحامقه حتى يقال : سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وما زال الجدل محتدماً بينهما حتى فجر الحضور ، ورنق الكرى فى عيونهم ، فتفوض المجلس ، ونام الناس — كعادتهم — فى ضيافات نيسابور ، ثم انتشروا فى الصباح وقد تشعبت آراؤهم فى الحكم على الرجلين ، تبعاً لاختلاف ميولهم وأهوائهم .

وقد شق على جماعة من الفضلاء أن يبلغ الشقاق بين الرجلين هذا الحد المقوت ! فسعوا فى إصلاح ذات البين ، وحملوا البديع على طلب المصافاة ، وهو دليل على أن المدوان بدر منه ، فمشى إلى الخوارزمى معتذراً يقول : بعد الكدر صفو ، وبعد الغيم صحو !

وأبى كرم الخوارزمى إلا أن يقبل عذره ، وزاد على ذلك فدعاه إلى أن يقضى عنده سحابة يومه مغموراً بأريحيته

وتصافى الرجلان ، وحل الوئام محل الخصام

ولكن هذا الصلح كان كصلح (فرساى) يحمل فى تضاعيفه جراثيم حرب ضروس ! فلم يلبث أعداء الخوارزمى والمستوحشون منه أن سعوا فى نقضه فهبت ريح الخلاف مرة أخرى شديدة عاتية ! فلم يكن بدّ من عقد مناظرة ثانية تكون فصل الخطاب فى هذه القضية الشائكة

وكان أن هُيّئ مجلس فى دار أبى القاسم الوزير ، حضره بعض العلية على رأسهم رجل له مكانته وخطره ، وهو الشريف العالم أبو الحسين ، وكان البديع سنياً متعصباً للأشاعرة ، والخوارزمى مصطبغاً بصبغة التشيع ، فرهب البديع جانب أبى الحسين ، ورغب فى استمالته إليه ، فمدحه ومدح آل البيت بقصيدة أولها :

يا معشراً ضرب الزما نُ على مُعرَّسهم خيامَهْ

ثم انثال الناس على المجلس من كل صوب وأوْب ، حتى حفل بذوى المثالة من رؤساء المدينة وعلمائها وقضاتها ومتصوفيها . وأقبل الخوارزمى — بعد لأى — فى جمّ غفير من أنصاره ومُريديه . وبعد ملاحاة ومشادة بين المتناظرين ، تشبه التحام طلائع الجيوش ، اقترح عليهم بعض الحضور أن ينشدا على غرار قول أبى الشيص :

أبقى الزمان به نُدُوب عِضاض ورمى سواد قرونه ببياض

فابتدر الخوارزمى قائلاً :

يا قاضياً ما مثله من قاضِ أنا بالذى تقضى علينا راضِ

ومنها :

ولقد بُليت بشاعر متهتّك لا بل بليت بناب ذئب غاض

فقال البديع : ما معنى قولك : ذئب غاض ؟ فقال الخوارزمى : ما قلته — هكذا يزعم الرواة — فشهد الحاضرون أنه قاله . فقال : الذئب الغاضى : الذى يأكل الغضا . فقال البديع : استنوق الذئب ! صار الذئب جملاً يأكل الغضا !

وهنا هدأت العاصفة بدخول الرئيس أبى جعفر ، والقاضى الحربى ، والشيخ أبى زكريا الحيرى .

(البقية فى العدد القادم)

على الجندى

(١) التسول

من غربة الروح

باقة منتقاة من شعر عبد الرحمن الخميس ستصدر قريبا فى ديوان متوسط والاشتراك فيه خمسة قروش قبل الطبع ترسل باسم الشاعر إلى دار الرسالة ٣٤ شارع المبدولى بالقاهرة عدا أجرة البريد

لأسنانكم بعد الآن !

أحدث الاكتشافات العلمية فى صحة الفم ، اليوم فى عجينة للأسنان :

يودكالسيلور

المطلب للشركة العلمية الفاخرة سيجلا نهورمان ص بريته ٢١٠٥ بمصر